أخوات بشر الحافى

كان بشر بن الحارث الحافى عابدا زاهدا من عباد بغداد

وكان لبشر ثلاث أخوات

* مضغة بنت الحارث

كانت أكبر من أخيها بشر ، وكانت صوامة قوامة

يقول بشر الحافى :

ـ تعلمت الورع من أختى مضغة ، فإنها كانت تجتهد ألا تأكل ما للمخلوق فيه صنع

* كما طيبت اسمى لأطيبن اسمك

تقول مضغة بنت الحارث :

قال لى أخى بشر :

ـ أحدثك عن بُدُوّ أمرى ـ أول هدايتى وتسلل الإيمان إلى قلبى ـ ؟

قلت :

ـ نعم

قال :

بينما أنا أمشى رأيت قرطاسا على وجه الأرض فيه اسم الله تعالى ، فنزلت إلى النهر فغسلته وكنت لا أملك من الدنيا إلا درهما فيه خمسة دوانق ـ الدانق : سدس درهم ـ فاشتريت بأربعة دوانق مسكا وبدانق ماء ورد ، وجعلت أتتبع اسم الله تعالى وأطيبه

ثم رجعت إلى منزلى فنمت فأتانى آت فى منامى فقال :

ـ يا بشر : كما طيبت اسمى لأطيبن اسمك ، وكما طهرته لأطهرن قلبك

* محال أن تكون هذه المرأة إلا أخت بشر الحافى

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل :

كنت مع أبى يوما من الأيام فى المنزل فدق داق الباب

فقال لى أبى :

ـ اخرج فانظر من بالباب ؟

فخرجت فإذا امرأة فقالت لى :

ـ استأذن لى على أبى عبد الله

فاستأذنته

فقال :

ـ أدخلها

فدخلت فسلمت عليه وقالت له :

ـ يا أبا عبد الله : أنا امرأة أغزل بالليل فى السراج وربما طفئ السراج فأغزل على ضوء القمر ، فهل على أن أبين غزل القمر من غزل السراج ؟

قال أحمد بن حنبل :

ـ إن كان عندك بينهما فرق ـ من حيث الجودة ـ فعليك أن تبينى ذلك

قالت مضغة بنت الحارث :

ـ يا أبا عبد الله : أنين المريض شكوى ؟

قال أحمد بن حنبل :

ـ إنى لأرجو أن لا يكون شكوى ، ولكن هو اشتكاء إلى الله تعالى

ثم انصرفت

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل :

فقال لى أبى :

ـ يا بنى : ما سمعت إنسانا يسأل عن مثل ما سألت هذه المرأة ، اتبعها يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل :

فتبعتها إلى أن دخلت دار بشر الحافى ، فعرفت أنها أخت بشر من الحارث

فأتيت أبى وقلت له :

ـ إن المرأة أخت بشر الحافى

فقال أحمد بن حنبل:

ـ هذا والله هو الصحيح ، محال أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر الحافى

* وفاة مضغة بنت الحارث

ماتت مضغة بنت الحارث قبل أخيها بشر

وقيل :

لما ماتت مضغة توجع عليها بشر توجعا شديدا وبكى بكاء كثيرا

فقيل له فى ذلك فقال :

قرأت فى بعض الكتب أن العبد إذا قصر فى خدمة ربه سلبه أنيسه ، ومضغة كانت أنيستى من الدنيا

* مخة بنت الحارث

تقول مخة بنت الحارث :

تخرق إزار بشر فقلت له :

ـ يا أخى : قد تخرق إزارك وهذا البرد فلو جئت بقطن حتى أغزل لك

فكان يجىء بالاستارين ـ بالأستارين فى الوزن أربعة مثاقيل ونصف ـ والثلاثة

فقالت مخة بنت الحارث لأخيها بشر :

ـ يا أخى الغزل قد اجتمع أفلا تسلم إزارك ؟

قال بشر الحافى :

ـ هاتيه

تقول مخة بنت الحارث :

فأخرجته إليه فوزنه فأخرج ألواحه وجعل يحسب الأساتير

فلما رآها قد زادت فيه قال لى :

ـ كما أفسدته فخذيه

* حتى يعوضك الله خيراً منه

ذات ضحى جاءت مخة بنت الحارث إلى أحمد بن حنبل فقالت :

ـ إنى امرأة رأس مالى دانقان ، أشترى القطن فأغزله وأبيعه بنصف درهم ـ ثلاثة دوانق ـ فأتقوت بدانق من الجمعة ـ أسبوع ـ ، فمر ابن طاهر الطائف ومعه مشعل ، فوقف يكلم أصحاب المسالح ـ بفتح الميم وهم الجماعة والقوم ذوو السلاح ـ فاستغنمت ضوء المشعل فغزلت طاقات ، ثم غاب عنى المشعل ، فعلمت أن لله فى مطالبة ، فخلصنى خلصك الله .

فقال أحمد بن حنبل :

ـ تخرجين الدانقين ثم تبقين بلا رأس مال حتى يعوضك الله خيرا منه

فقال عبد الله بن أحمد بن حنبل لأبيه :

ـ يا أبه : لو قلت لها : لو أخرجت الغزل الذى أدرجت فيه الطاقات ؟

قال أحمد بن حنبل :

ـ يا بنى : سؤالها لا يحتمل التأويل

ثم تساءل أحمد بن حنبل :

ـ من هذه ؟

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل :

ـ هذه مخة أخت بشر بن الحارث

فقال أحمد بن حنبل :

ـ من هاهنا أتيت

لقد كانت مخة بنت الحارث تقصد الإمام أحمد بن حنبل وتسأله عن الورع والتقشف ، وكان الإمام يعجب بمسائلها

* زبدة بنت الحارث

تقول زبدة :

جاء رجل إلى أخى بشر فسأله عن مسألة ، فأطرق بشر مليا ثم رفع رأسه ، ثم أطرق ، ثم رفع رأسه وقال :

اللهم إنك تعلم أنى أخاف أن أتكلم

اللهم إنك تعلم أنى أخاف أن أسكت

اللهم إنك تعلم أنى أخاف أن تأخذنى فيما بين السكوت والكلام

* اسمى بشر

تقول زبدة :

ذات ليلة جاء بشر بن الحارث إلى دارى فوضع إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارج الدار ، وبقى كذلك يتفكر حتى أصبح ، فلما أصبح سألته :

ـ فى ماذا تفكر طوال الليلة يا أبا نصر ؟

قال بشر الحافى:

ـ تفكرت فى بشر النصرانى ، وبشر اليهودى ، وبشر المجوسى ، واسمى بشر

فقلت :

ـ ما الذى سبق منك حتى خصك ؟

قال أبو نصر :

ـ فتفكرت فى تفضله على أن جعلنى من خاصته وألبسنى لباس أحبائه

* يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب

لما مرض بشر الحافى مرضه الذى مات فيه اجتمعت إليه مخة وزبدة و . . وقلت له :

ـ نريد أن نحمل ماءك ـ ماء بوله ـ إلى الطبيب

فقال أبو نصر :

ـ أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد

قالت زبدة :

ـ إن فلانا النصرانى طبيب جيد ولابد أن نحمل إليه ماؤك

قال بشر الحافى :

ـ دعونى فالطبيب أمرضنى

قالت زبدة ومخة :

ـ لابد من ذلك

قال بشر بن الحارث لأخته زبدة :

ـ إذا كان فى الغد ادفعى إليهم الماء

فلما أصبحوا أتوها فدفعت زبدة إليهم الماء، فمضوا به إلى الطبيب فنظر إليهم وقال :

ـ ضعوه

فوضعوه ، ثم قال :

ـ حركوه

فحركوه

حتى فعلوا ذلك ثلاثا ، فقال أحد القوم :

ـ ما هكذا أخبرنا عنك

فتساءل الطبيب :

ـ وما الذى أخبرتم به عنى ؟

قال :

ـ أخبرنا عنك بحسن النظر وسرعة الإدراك ، وجودة المعافاة ، ونراك تردد النظر ، وذلك يدل على قلة المعرفة

فقال الطبيب :

ـ والله لقد علمت حاله من نظرة ، ولكننى رددت النظر تعجبا ، وبعد فإن يكن هذا ماء نصرانى فهو ماء راهب قد فتت الخوف من الله كبده ، وإن يكن ماء مسلم فهو ماء بشر الحافى ، وليس عندى له دواء ، فعللوه فإنه ميت

فقالوا للطبيب :

ـ هو والله ماء بشر الحافى

فلما سمع الطبيب ذلك أخذ مقراضا ـ مشرط ـ وقطع زناره ـ حزام كان يشده النصرانى والمجوسى على وسطه ـ وقال :

ـ أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فانطلقوا إلى بشر الحافى ليبشروه ، وقبل أن ينطقوا بحرف واحد قال أبو نصر :

ـ أسلم الطبيب ؟

فقالوا فى عجب :

ـ نعم فمن أخبرك ؟

قال بشر الحافى :

ـ لما خرجتم من عندى أخذتنى سنة وإذا بهاتف يقول :

يا بشر : ببركة مائك أسلم الطبيب

ولم يلبث بشر الحافى بعد ذلك إلا ساعة . . ومات

من أقوال زبدة بنت الحارث :

* قالت زبدة بنت الحارث :

أثقل شىء على العبد الذنوب

وأخفه عليه التوبة

فما له يدفع أثقل شىء بأخف شىء ؟